الإبداع والمرجعية الإسلامية

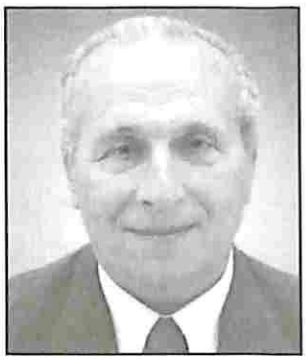

الإبداع موهبة ومقدرة، ووسيلة من وسائل إيجابية المبدع مع واقعه، وكلما تمرس في هذا المجال، علت مقدرته، وازداد إسهامه في بناء أمته، وترشيد وعيها، وعليه أن يحقق ذلك بكل الوسائل المكنة فنياً ومعرفياً، وهنا يتكامل دور المبدع والناقد في مجال النص، ذلك الناقد الذي يولي انتاج المبدع اهتمامه كشفاً وتفسيراً وتقويماً وتقييماً، بما يزيد من خبرات المبدع، وفاعليته تجاه أمته وليست مهمة الناقد الملاحقة وتثبيط همة المبدعين، لأن العملية الإبداعية في منظور النقد الحديث تتكامل بالمرسل والمتلقي، بل إن الكفاءة شرط فيهما معاً في نظرية التلقي.

والمبدعون الذين يقدرون رسالتهم ودورهم في حياة أمتهم هم الذين ينوؤون بمسؤولية حمل هموم أمتهم، وما أكثر المبدعين الذين يحاولون ذلك اليوم في مواجهة تيارات الغزو وهيمنة العولمة.

إن الحياة اليوم من الاتساع والتنوع بحيث توجب على المبدع التعامل مع مختلف جوانبها، ولكن ربما كانت المسؤوليات تجعل بعض المبدعين يتمثل جانباً أو جوانب منها دون غيرها، ولا أظن المبدع الواعي بمستطيع أن يتجاهل متغيرات الحياة من حوله، وما تتطلبه من تهيؤ وفاعلية، وربما كان الدين والسياسة والاقتصاد من مسوغات التعامل مع الحياة من خلال هذه المحاور، لكن هذه المحاور في الوقت نفسه قد لا تمثل كل جوانب الحياة في نظر بعض الناس وإن كان الدين من الاتساع والشمول من وجهة النظر الإسلامية بحيث يشمل كل جوانب الحياة، وهو منظور يجب الأخذ به، وتفعيله على كل المستويات، لتوجيه الإبداع وجهة سوية شكلاً ومضموناً .

وتتعدد جوانب الحركة الإبداعية واتجاهاتها إذ نجد أعمالاً أدبية تتجلى فيها المحافظة وأخرى تتضح فيها الحداثة، كما قد نجد أعمالاً يتصل فيها الجانبان، وهذا في حد ذاته مؤشر إيجابي، لكن المهم ألا يكون هناك زعم بادعاء اتجاه إلغائه للآخر.

وأعتقد أن حرية المبدع لا بد أن تكون كاملة، لكنها ليست مطلقة، بمعنى أنه يكتب باعتباره فرداً في مجتمع وأمة عليه مسؤوليات نحوهما، في التوعية، والكشف والتعبير عن الهموم والأشواق بما يحقق هذه المسؤوليات والمهام، دون أن يخرج إلى عكس ذلك، فليس هناك إبداع دون أهداف إنسانية عليا، حتى عند من يؤمنون بالفن للفن، فما بالك بالمجتمع المسلم؟

وليس في ذلك أي مصادرة لحرية المبدع، طالما اعتبر نفسه - واعتبره مجتمعه - فرداً مسؤولاً، يعطي ويأخذ، وله فاعلية تحقق ذاته، وتكشف عن اهتمامات أمته، وإلا كان معزولاً، بما يعني سلبيته، وحرمان أمته من إسهامه في نهضتها وتقدمها بالكلمة الجميلة المعبرة، ذات الأصل الثابت، والفرع السامق في السماء.

إن مرجعية المبدعين في مجتمعنا الإسلامي كتاب الله وسنة نبيه ص، وهي لا تقف عند ذلك في عصر تحتدم فيه المتغيرات، وتتصل فيه الحضارات من هنا فإن فاعلية المبدع تتجلى في رؤيته لعصره وعالمه وتفاعله معهما ببصيرة نافذة، تميز بين الغث والثمين، فيحافظ على ثوابت الأمة، ويتصل بالمتغيرات من حوله، بما يجعل رؤيته في إبداعه تتكامل وتبني وتقود وتصلح، وذلك هو السبيل للموءامة بين حرية الإبداع والتعبير والالتزام .

ولذلك فالمبدع هوالإنسان القادر على الاستجابة الفنية لما تنيطه الأمة بأبنائها من مسؤوليات في بنائها وترشيدها ونهضتها وليتبنى رؤية تستوعب الثوابت وتحافظ عليها، كما تتصل بالمتغيرات بوعي وفاعلية فلا تذوب في الآخر وإن كانت تتصل به، وتحقق الريادة والنهضة.

د. سعد أبو الرضا